(1)

الرافعي واستلهام التاريخ

obeikandl.com

obeikandl.com

"إن التاريخ ليتكلم بلغة أوسع من ألفاظه إذا قرأه من يقرؤه على أنه بعض نواميس الوجود صورت فيها النفس الإنسانية، كيف اعتورت أغراضها، وكيف مدت في نسقها، وكيف تغلغلت في مسالكها، وما تأتي لها فجرت به مجراها، وما دفعها فانحدرت منه إلى مقارها. فهو ليس بكلام تستقبله تقرأ فيه، ولكنه أحوال من الوجود تعترضها فتغير عليك حسك بإلهامها وأحلامها... وإذا التاريخ فيما تقرؤه مفنن في ظاهره وباطنه يفيء عليك من ألفاظه ومعانيه بظلال هي صلتك أنت أيها الحي الموجود بأسرار ما كان موجودًا من قبل"

مصطفى صادق الرافعي

obeikandl.com

شغل الجانب السردي حيزًا كبيرًا من تاريخ البشرية عبر عصورها المختلفة، وقد ساعد على ذلك ولعُ الإنسان الفطري بالحكي وصوره المختلفة؛ إذ كان يجد فيه المتعة والتسلية التي تُروِّح عنه وتُذهب عنه بعضَ نكد الدنيا وتخفف من وطأتها، كما كان يجد فيه متنفسًا له عن طريق التعريض بالأحوال السياسية والاجتماعية دون تصريح قد يجلب له كثيرًا من المتاعب.

وقد شهد القرنان الأخيران تطورًا كبيرًا في الفن القصصي، حيث أصبح فنًا مستقلاً له ضوابطه وسماته التي تميزه عن غيره من الفنون بعد أن كان مختلطًا بالفنون الأخرى كالملحمة الشعرية والمسرحية في الغرب، فأرسطو الذي تحدث في كتابه الشهير (فن الشعر) عن الأطر العامة للفنون في عصره أرجع كل الفنون إلى دافع المحاكاة للطبيعة، فالموسيقى محاكاة لإيقاع الطبيعة، والرسم محاكاة لمشاهد الكون، كما فصَّل القول في التمايز بين كل من التراجيديا والكوميديا والملحمة باعتبار كل منها فنًا له أسسه وآلياته، لكنه أهمل الحديث عن الفن القصصي رغم حديثه عن المسرحية والملحمة وفيهما جانب قصصي لا يُغفل بحال من الأحوال.

الرافعي والسرد

لم يهتم الرافعي بكتابة القصة في قالبها الحديث اهتمامه بالمقال، إذ سيطر عليه الأسلوب المقالي وملأ أقطار نفسه حتى عُدَّ ضمن أعلامه المبرزين كصاحب الرسالة أحمد حسن الزيات ومحمد حسين هيكل وطه حسين وغيرهم ممن نبغوا في هذا النوع من الكتابة، وربما كان سبب عزوفه عن كتابة القصة في

قالبها الغربي انشغاله بالقضايا الكبرى للمجتمع في ذلك الوقت؛ حيث كان يرى أن المقال هو الأكثر واقعية والأنجع علاجًا في المواجهة، وربما كان مردُّ ذلك إلى اتجاهه المحافظ، ورفض التبعية للغرب ووصايته على الأدب العربي.

لقد جرب كتابة القصة مبكرًا في عام 1905م عندما أنشأ قصة (الدرس الأول في علبة كبريت)، ثم أعاد نشرها بعد ثلاثة عقود بمجلة (الرسالة) تحت عنوان (السطر الأخير من القصة)، أما قصته الثانية (عاصفة القدر) فقد نشرها عام 1925م بمجلة (المقتطف)؛ بل إن بعض ما كتبه الرافعي سماه (قصة) مثل: (قصة زواج وفلسفة المهر) وتكملتها (ذيل القصة وفلسفة المال)، و(قصة أب)، و(قصة الأيدي المتوضئة)، و(السطر الأخير من القصة)، وهو ما يعني أنه كان ساردًا، لكنه رفض التقيد بالقالب القصصي الجديد.

على أن الرافعي لم يجد نفسه في هذا النوع من الكتابة، وهو الأمر الذي أشار إليه في مقالة له تحت عنوان (فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها)، يقول متحدثًا عن تجربته: "لم أكتب في القصة إلا قليلًا، إذا أنت أردت الطريقة الكتابية المصطلح على تسميتها بهذا الاسم، ولكني مع ذلك لا أراني وضعت كل كتبي ومقالاتي إلا في قصة بعينها، هي قصة هذا العقل الذي في رأسي، وهذا القلب الذي بين جنبي"[1]، فهو لم يستطع كتابة القصة مجردة من ذاته

(1) وحي القلم، ص 924. وراجع ما كتبه العريان في (حياة الرافعي)، ص 205، وما كتبه كمال نشأت، ص 109.

وفلسفته؛ ومن ثم تمسك بما كتبه من قصص شابتها فنيةُ المقال، وهو النوع الذي يمكن أن نطلق عليه (السرد المُهجَّن) الذي يجمع بعض عناصر المقال والقصة معًا، ولا يلتزم بالقالب القصصي المتعارف عليه فنيًّا.

ويرى الدكتور عبدالقادر القط أن الرافعي قد "جنح في (السحاب الأحمر) إلى شيء يشبه القصة القصيرة؛ لكن ذاتيته المسيطرة لم تُطق صبرًا على ما تقتضيه القصة من خفاء شخصية الكاتب وراء المواقف والشخصيات"[1]، ويبدو أن هذه كانت مشكلته كما كانت مشكلة المنفلوطي والعقاد أيضًا، إذ لم يستطيعوا كتابة القصة دون الاستطراد الفلسفي وصبغها بوجهة نظرهم، كما لم يتمكنوا من استخدام اللغة المناسبة للقصة، وقد رأينا كيف أن الرافعي قد أجرى كلاما على لسان أبطال بعض قصصه بلغة لا تتناسب مع طبيعة الشخصية وثقافتها، وإن كنت أرى أن هذه القصص، وإن اكتنفها بعض القصور، لا تخرج عن إطار السرد، وبين أيدينا كثير من الأعمال الأدبية بعد الرافعي تفتقد بعض الفنِّيات الضرورية؛ لكنها لم تخرج عن إطار السرديات.

(1) راجع مدخل لدراسة مصطفى صادق الرافعي: د. عبدالقادر القط، ص 13، ضمن كتاب جامع لكتب الرافعي (رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد)، الشركة العالمية للنشر (لونجمان) – مصر، 1994 م، وإلى هذا الرأي ذهب أستاذنا الدكتور حلمي القاعود في كتابه مدرسة البيان في النثر الحديث، دار الاعتصام – القاهرة.

لقد كتب الرافعي في (وحي القلم) نحو أربعين قصة تمثل حوالي ستين بالمائة من حجم الكتاب، وأغلبها من الحياة اليومية وعددها ثلاث وعشرون قصة، فضلًا عن سبع عشرة قصة مستوحاة من التراث الإنساني[1] وتمثل جميعها المرحلة الانتقالية بين السرد القديم المتأثر بالمقامة والمسرح، والسرد الحديث الذي سار عليه اللاحقون من الأدباء.

***

معلومٌ أن الحدث التاريخي في حقيقته مصدر للحَدَث الروائي أو القصصي؛ سواء أكانت معالجة الحدث حقيقية تتحرى الحدث وتتعامل معه بأمانة المؤرخ المحايد، أم كانت معالجة تخيلية تتكئ على التاريخ، فتلتقط منه إشارات خافتة وتزيد عليها ما شاء لها، وتنسج على منوالها بإعمال القريحة والخيال، ولكل من الاتجاهين مدرسته المعروفة في الأدب على النحو الذي يضيق المجال هنا عن تفصيله.

(1) ذهب الأستاذ شمس الدين درمش في مقاله (من ملامح القصة عند الرافعي) إلى أن عدد هذه القصص أربعون، أغلبها من الحياة اليومية وعددها ثلاث وعشرون، فضلا عن سبع عشرة مستوحاة من التراث الإنساني. مجلة الأدب الإسلامي، العدد الخاص، ص146، وقد أحصينا النوع الثاني فكانت ثلاث عشرة لا سبع عشرة كما أحصاها، وربما يكون الرجل قد خلط بين بعض القصص وتكملتها التي سميت باسم مغاير للأصلية.

والمطَّلع على أدب الرافعي يلمس إرهاصات باكرة تُظهر حُبَّه للتاريخ واستئناسه به منذ نعومة أظفاره، فبين أيدينا مسرحية – أو رواية كما كانت تُسمى في ذلك الوقت – لا يعرفها الكثيرون له تدور أحداثها في إطار تاريخي تحمل اسم (حسام الدين الأندلسي) كتبها في فترة مبكرة من حياته؛ حيث صدرت طبعتها الأولى نحو سنة 1896 أو 1897م، وقدَّم لها الشاعر الأشهر محمود سامي البارودي، وقرظ لها بشعرٍ منظوم.

ومن قصص الرافعي أو مقالاته القصصية التي تدخل ضمن "التناص التاريخي" ما يدخل إذا ما صُنِّف تحت الاتجاه الاجتماعي سواء الديني أم السياسي وغير ذلك، وإجمالًا فالقصص التي استند فيها إلى المصادر التاريخية – كما أحصيناها – من كتابه (وحي القلم) هي:

1) اليمامتان.

2) سمو الحب.

3) قصة زواج وفلسفة المهر، وبقيتها في (ذيل القصة وفلسفة المال).

4) زوجة إمام، وبقيتها في (زوجة إمام بقية الخير).

5) قبح جميل.

6) رؤيا في السماء.

7) بنته الصغيرة (1 – 2)

8) الانتحار (1 – 6).

9) السمكة، وبقيتها في: (الزاهدان)، و(إبليس يعلم)، و(الدنيا والدرهم).

10) الشيطان.

11) تاريخ يتكلم.

12) الأسد.

13) أمراء للبيع.

وبنظرة فاحصة إلى هذه القصص نجد أنها قد نُشرت على هيئات متعددة، فمنها المفردة، وهي: (اليمامتان)، و(سمو الحب)، و(قبح جميل)، و(رؤيا في السماء)، و(الشيطان)، و(تاريخ يتكلم)، و(الأسد)، و(أمراء للبيع)، ومنها المثناة، وهي: (قصة زواج وفلسفة المهر)، و(زوجة إمام)، و(بنته الصغيرة)، فضلًا عن ما جاء منها مسلسلًا في أكثر من حلقتين، وهما (الانتحار)، و(السمكة).

والملاحظ أن أغلب عناوين هذه القصص التاريخية – إن لم تكن كلها – لا تشير إلى مضمونها التاريخي ولا تعبِّر عنه سواء في ذكر الأحداث، أو الشخصيات، أو الحقب الزمنية، فـ(اليمامتان) مثلًا تتناول قصة تزامنت مع الفتح الإسلامي لمصر، والقصص المسلسلة: (سمو الحب) و(قصة زواج

obeikandl.com

وفلسفة المهر)، و(زوجة إمام) تتناول أحداثًا وقعت في العصر الأموي. وكذلك (بنته الصغيرة) وغيرها من القصص.

اليمامتان

واحتفاء الرافعي بالتاريخ احتفاءٌ كبيرٌ لا نظير له، فالتاريخ في نظره تجربة ممتدة، لا يحمل في طياته أحداثًا فحسب؛ وإنما يحمل العِبَرة والعظة، ويُعين على فهم الواقع واستشراف المستقبل، ومِن ثَمَّ فلم يكتف بسرد الأحداث في قالب بياني وأدبي فحسب؛ وإنَّما تعدَّاه إلى الإيغال في فلسفة التاريخ.

ولا عجب إذا رأينا الرافعي يُصدِّر كتابه (وحي القلم) بقصة (اليمامتان) التي نشرها في مجلة الرسالة[1]، وهي قصةٌ تاريخيةٌ تدور أحداثها في غضون العام 640م نقلها- حسب كلامه - عن أبي عبدالله محمد بن عمر الواقدي (130 - 207 هـ) وهو من أقدم مؤرخي الإسلام.

تتحدث القصة عن (أرمانوسة) ابنة (البطرق كيرس) المعروف في الأدبيات الإسلامية باسم المقوقس الحاكم البيزنطي لمصر آنذاك التي كانت تتجهز للزواج من (قسطنطين بن هرقل) غير أنَّ الفتح الإسلامي باغتها فتأجل العُرسُ؛ وكانت فرصة لتقترب أكثر من الإسلام وتتعرف إليه ومعها وصيفتها (مارية).

(1) راجع العدد (92)، 8 أبريل 1935م.

لم يعتمد الرافعي على السرد المجرَّد وإنما استخدم (عنصر الإيهام) في القصة ووظَّفه توظيفًا جيدًا، حيث ابتدأها بفقرة قال إنها منقولة من الواقدي ليُضفي عليها صبغة الواقعية، ثم أخذ ينسج الأحداث بشكل يجعلها واقعًا ملموسًا، كأنك إزاء عمل درامي مشوق، كما استخدم تقنية (الراوي) في غير موضع بالقصة[1]

ولم ينسْ الرافعي أن يوهم القارئ بواقعية الحدث، فأورد بعض الأبيات الشعرية – التي قال إنها مترجمة– على لسان الوصيفة (مارية) بعد أن جعلها شاعرة تحيط بالأدب اليوناني، فجعلت تندب حظها وتردد ما سمعته أذناها حول المأساة التي ستحل بقدوم العرب الجياع الذين يسحقون كل من يقابلهم بلا رحمة ولا شفقة، يقول في هذه القصيدة النثرية:

"جاءك أربعةُ آلافِ جزار أيتُها الشاةُ المِسكينة!

ستذوق كلُّ شعرة منكِ ألمَ الذبح قبل أن تُذبَحي!

جاءك أربعةُ آلاف خاطف أيتها العذراء المسكينة!

ستموتين أربعة آلاف مِيتة قبل الموت!

قَوّني يا إلهي؛ لأغمِدَ في صدري سِكينًا يردّ عني الجزارين!

(1) وحي القلم، ص 17، 21

يا إلهي، قَوّ هذه العذراءَ؛ لتتزوّج الموتَ قبل أن يتزوجَها العربي"[1]

إن الرافعي يصور فزع (مارية) من الغازين العرب الذين أشاع الروم أنهم "قوم جياع يَنْفضهُم الجدْبُ على البلاد نَفضَ الرمالِ على الأعين في الريح العاصف; وأنهم جَراد إنساني لا يغزو إلا لِبَطْنِه; وأنهم غِلاظُ الأكباد كالإبل التي يمتطونها; وأن النساء عندهم كالدواب يُرْتَبَطْن على خَسْف; وأنهم لا عهدَ لهم ولا وفاء، ثَقُلت مطامعُهم وخَفت أمانتُهم; وأن قائدَهم عَمْرو بن العاص كان جزارًا في الجاهلية، فما تَدَعُه روحُ الجزار ولا طبيعتُه; وقد جاء بأربعة آلاف سالخ من أخلاط الناسِ وشُذاذِهم، لا أربعةِ أَلاف مقاتل من جيش له نظامُ الجيش"[2].

وهذا الإيهام من شأنه أن يجعل القارئ يعيش الحدَث مقتنعًا بوقوعه حتى لو لم يكن له من الحقيقة إلا النزر اليسير، وهذا دأب الرافعي في كثير من موضوعاته حيث يعمد إلى الإيهام لإقناع القراء ووضع ما يكتب موضع التصديق وغلق الثغرات التي قد تثير الريبة تجاه مصداقية النص.

(أرمانوسة) بين جورجي والرافعي

لا أظن أن مشروعًا عكف صاحبه أو أصحابه على تشويه الإسلام باحترافية أكثر من مشروع جورجي زيدان (1861 – 1914م) الذي أخذ

(1) نفسه، ص 14، 15
(2) نفسه، ص 14

على عاتقه تشويه الحضارة الإسلامية وتاريخها الممتد عن طريق القصة التاريخية التي ظاهرها فيه الرحمة، فبينما "كان جورجي زيدان يحاول تشويه تاريخ الإسلام من خلال سلسلته المعروفة (روايات تاريخ الإسلام) القائمة على التدليس وتحريف الوقائع، وتفسير التاريخ الإسلامي تفسيرًا اقتصاديًّا ودنيويًّا، بعيدًا عن الغايات الإيمانية، كان الرافعي من خلال ما أورده في كتابه (وحي القلم) بخاصة يعيد الأمور إلى نصابها، ويكشف الأعماق الإيمانية في حركة المسلمين في التاريخ، وكيف أنها كانت الدافع الأساس، والهدف الأسمى، وأن ما أفاء الله به على المسلمين إنما كانت نتيجة لا سببًا، وثمرة لا جذرًا، ومنحة ربانية للذين خلصت نياتهم، وقدموا أعمالهم خالصة لوجهه تعالى"[1]

وبصرف النظر عن فنيَّات زيدان الضعيفة - فليس هذا مجالها - فقد أنجز أكثر من عشرين رواية تاريخية ضمن سلسلة أطلق عليها اسم (روايات تاريخ الإسلام)، هي: (فتاة غسَّان)، و(عذراء قريش)، و(17 رمضان)، و(غادة كربلاء)، و(الحجاج بن يوسف)، و(فتح الأندلس)، و(شارل وعبدالرحمن)، و(أبو مسلم الخراساني: سقوط الخلافة الأموية)، و(العباسة أخت الرشيد)، و(الأمين والمأمون)، و(عروس فرغانة)،

(1) راجع مقال (أسلوب الرافعي الأدبي في تناول التاريخ الإسلامي) للدكتور عبدالحليم عويس، مجلة الأدب الإسلامي، مرجع سابق، ص 42.

و(أحمد بن طولون)، (عبد الرحمن الناصر)، و(فتاة القيروان)، و(صلاح الدين الأيوبي)، و(شجرة الدر)، و(الانقلاب العثماني)، و(المملوك الشارد)، و(استبداد المماليك)، و(بيت القصيد)، و(جهاد المحبين)[1].

ومن هذه الروايات رواية (أرمانوسة المصرية) التي نشرها سنة 1911م، وتناولت القصة (أرمانوسة) التي أحبت (أركاديوس) قائد حصن الروم حبًّا رآه زيدان سببًا في هزيمة الروم وانتصار المسلمين، كما اتهم المسلمين بأنهم نهبوا البيوت وسلبوها عندما فتحوا بلبيس- واتهامات أخرى لا يسعنا تناولها في هذا المقام - معتمدًا على مصادر واهية تعمل هي الأخرى على تزييف التاريخ؛ بينما غضَّ الطرف عن كتابات أخرى تتسم بالأمانة والنَّصَفة، ومنها كتابات لغير المسلمين.

وفي الرواية تشويهٌ مُتَعَمَّدٌ لحياة صحابي من أشهر الصحابة وهو القائد الفاتح عمرو بن العاص، كما اجتهد في وصف المسلمين بالسذاجة والغباء في غير موضع، وربما كان ذلك بسبب من الموقف المناهض للفتح الإسلامي باعتباره غزوًا للمسيحية وتحجيمًا لها[2].

(1) راجع مجموعة (روايات تاريخ الإسلام) التي أعادت دار الهلال إصدارها أكثر من مرة.

(2) للوقوف على جنايات جورجي زيدان يُنظر: إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام للأستاذ أنور الجندي، وجورجي زيدان في الميزان للأستاذ شوقي أبو خليل.

ويعيب بعض الباحثين على "زيدان" تشويهه للتاريخ واعتباره مجرد مادة لتسلية القراء؛ حيث" ألَّف روايات كثيرة لتسلية القراء، وكان يتصرف بالمادة التاريخية، ويُغير في أحداث التاريخ بما يحقق لروايته المتعة والإثارة، ويخلق جوًّا من المخاطر والمغامرات المشوقة"[1].

وثمة دراسة للدكتور سيد النسَّاج تناولت بالنقد رواية (أرمانوسة المصرية) انتهى فيها إلى القول بعدة نتائج، هي:

1. إنَّ رغبة جورجي زيدان في التميُّز بين أقرانه أمثال اليازجي والبستاني والشدياق جعلته يبحث عن مجال غير مطروق؛ فكان مجال القصة التاريخية.
2. تحيُّزه الواضح للمسيحية على حساب الدين الإسلامي الحنيف.
3. عدم اعتماده على المصادر العلمية المعتمدة.
4. الكسل الفني الذي دعاه إلى نقل صفحات بكاملها دون تدخل منه[2].

إن طريقة جورجي زيدان في سرد أحداث التاريخ- كما يقول الدكتور محمد رياض وتار - تتمثل "باتخاذ التاريخ مادة للسرد، وإعمال الخيال في تقديم المادة التاريخية، بهدف خلق المتعة والتشويق، وشد القارئ إلى متابعة

(1) تطور الرواية العربية المعاصرة في بلاد الشام (1870 - 1967م) للدكتور إبراهيم السعافين، ص 165.

(2) انظر: مقدمة رواية (أرمانوسة المصرية)، تقديم ودراسة سعيد النسَّاج.

الرواية. ولعل خروج الروائيين الأوائل عن التمسك بالحقائق التاريخية في بعض الأحيان دليل على الفرق بين الروائي والمؤرخ من جهة، والرواية التاريخية والتاريخ من جهة أخرى"[1]، ونزيد على هذا اعتماده الدائم على الروايات الواهية التي لا أساس لها من الصحة باعتبارها مسلمات تاريخية.

أما قصة الرافعي (اليمامتان) ففيها تجلية لصورة الإسلام الصحيحة التي تلوَّثت بفعل فاعل، فالمسلمون الفاتحون "لا يُغِيرون على الأمم، ولا يحاربونها حرب المُلك؛ وإنما تلك طبيعة الحركة للشريعة الجديدة، تتقدم في الدنيا حاملة السلاح والأخلاق، قوية في ظاهرها وباطنها، فمن وراء أسلحتهم أخلاقهم؛ وبذلك تكون أسلحتهم نفسها ذات أخلاق"[2]

والإسلام هو الدين الذي"سيندفع بأخلاقه في العالم اندفاع العصارة الحية في الشجرة الجرداء؛ طبيعة تعمل في طبيعة؛ فليس يمضي غير بعيد حتى تخضرّ الدنيا وترمي ظلالها؛ وهو بذلك فوق السياسات التي تشبه في عملها الظاهر الملفق ما يعد كطلاء الشجرة الميتة الجرداء بلون أخضر... شتان بين عمل وعمل، وإن كان لون يشبه لونًا"[3]

(1) توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة للدكتور محمد رياض وتار ص 102
(2) وحي القلم، ص 15
(3) نفسه.

أما شخصية عمرو بن العاص فقد قدمها كاتبنا على نحو مغاير لجورجي زيدان، يقول الرافعي مصوِّرًا ما كان بين (أرمانوسة) و(مارية): "فلما أصبحتا وقع إليها أن عمرًا قد سار إلى الإسكندرية لقتال الروم، وشاع الخبر أنه لما أمر بفسطاطه أن يُقوَّض أصابوا يمامة قد باضت في أعلاه؛ فأخبروه؛ فقال: قد تحرَّمت في جوارنا، أَقِروا الفسطاط حتى تطير فراخها فأقرُّوه!" [1]

وأغلب الظنِّ أن الرافعي قد كتب هذه القصة أو المقال القصصي ردًا على تجاوزات جورجي زيدان في روايته (أرمانوسة المصرية) دون الإشارة إلى ذلك؛ حتى لا يُفهم منه غيرته بسبب من روح التنافس بينهما في تأليف كتاب (تاريخ آداب العربية)، ففي إحدى رسائله المؤرخة في 13 يونيو سنة 1917م – أي بعد وفاة زيدان بنحو ثلاث سنوات – يقول الرافعي لـ (أبورية): "وصاحب الهلال القديم المأسوف عليه كان يُجلني ويمدحني حتى إذا أصدرت (تاريخ آداب العرب) تغير لي، وأخذ يعرِّض بي تعريضًا في مجلته من غير أن يصرح باسمي، فكتب بضع مقالات من هذا النمط وأظن أن ابنه يشبهه. ولقد كنت أنا السبب في أن ألف زيدان كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية)" [2]، وربما كان هذا الشقاق لسبب آخر لا نعرفه، لكن اختيار الرافعي لهذه القصة بالذات يضع كثيرًا من علامات الاستفهام.

(1) نفسه، ص 21.

(2) رسائل الرافعي، ص 39.

أمراء للبيع

إذا كان الرافعي قد صدَّر كتابه (وحي القلم) بقصة تاريخية هي (اليمامتان) كما أوضحنا؛ فقد كان آخر ما نشره في (مجلة الرسالة) قبيل وفاته بأيام قليلة (3 مايو 37، العدد 200) مقال تحت عنوان (أمراء للبيع)، يتناول فيه موقفين من التاريخ لعالمين عُرفا بشجاعتهما في مواجهة جور السلاطين، وهما: شيخ الإسلام تقي الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد (ت 702 هـ)، وسلطان العلماء عز الدين بن عبدالسلام (ت 660 هـ)، وجاء المقال على لسان راوٍ هو الشيخ تاج الدين محمد بن علي (ت 717 هـ)، الملقب بـ (طوير الليل).

إن الرافعي فيما يبدو يتأسف على هذا النموذج النادر من العلماء الذين اعتزوا بدينهم ولم يركعوا في بلاط السلاطين الذين ملأوا الأرض جورًا وظلمًا، إنه يُقرِّر عدة قواعد مهمة للغاية، منها أنه" فما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يرده الشرع عليه؛ ولو نافق الدين لبطل أن يكون دينًا، ولو نافق العالم الديني لكان كل منافق أشرف منه؛ فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود" [1]

وثمة باعث مهم ربما كان وراء كتابة الرافعي لهذا المقال، وهو افتقاده نموذج رجل الدين الشجاع الذي يجهر بالحق أمام تسلُّط الحكام

(1) وحي القلم، ص 727

واستبدادهم، ليعيد إلى أذهاننا ما كتبه الشيخ عبدالرحمن الكواكبي صاحب (طبائع الاستبداد)، وقبله كتابات الشيخ جمال الدين الأفغاني الذي جاهد الاستبداد جهادًا كبيرًا، يقول الرافعي:" وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم امتداد لعمل النبوة في الناس دهرًا بعد دهر، ينطقون بكلمتها، ويقومون بحجتها، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النور، تحويه في نفسها وتلقيه على غيرها، فهي أداةٌ لإظهاره وإظهار جماله معًا" [1]

إنه ليفرق بين (علماء الحق) و(علماء السوء) على نحو بليغ صاغه في قالب شفيف من الحكمة التي تنضح بها كتاباته وينز بها قلمه، يقول في قالب حواري:" أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء وكلهم آخذ من نور واحد لا يختلف؟! إن أولئك في أخلاقهم كاللوح من البلور؛ يظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية؛ وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير" [2]، فالعالم الرباني المتصل بربه ثابتٌ على مبادئه لا يتزعزع مهما اشتدت به العواصف وجاءه الموج من كل مكان"ولا تتحول أخلاقه ولا تتفاوت ولا يجيء كل يوم من حوادث اليوم، فهو بأخلاقه كلها، لا يكون مرة ببعضها ومرة

(1) نفس الموضع.
(2) نفس الموضع.

ببعضها، ولن تراه مع ذوي السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا الذي لو نطقت أفعاله لقالت لله بلسانه: هم يعطوني الدراهم والدنانير فأين دراهمك أنت ودنانيرك؟!" [1]

ثم يعلو صوت الحكمة مرة أخرى عند الرافعي فيصوغ من التجربة التاريخية مَثَلًا حِكْميًّا تتقاصر أمامه التشبيهات، فنراه يقول على لسان ابن دقيق العيد: "إن الدينار يا ولدي إذا كان صحيحًا في أحد وجهيه دون الآخر، أو في بعضه دون بعضه، فهو زائف كله؛ وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء يتعاملون مع قوة الهضم فيهم.. فينزلون بذلك منزلة البهائم؛ تقدم أعمالها لتأخذ بطونها، والبطن الآكل في العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله، فإذا رأيت لعلماء السوء وقارًا فهو البلادة، أو رقة فسمها الضعف، أو محاسنة فقل إنها النفاق، أو سكوتًا عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها!" [2]

إن هذه المعاني القوية التي تضمنها المقال لم يكن بمقدور الرافعي أن يعبر عنها مباشرة؛ ومن ثم لجأ إلى لغة (الرمزية والإشارة) فأخذ من

(1) نفس الموضع.
(2) نفسه، 727 – 728.

أحداث التاريخ ما يُسقطه على الواقع دون اللجوء إلى التصريح المكشوف المزعج، وربما يسأل سائل: ولماذا يلجأ الرجل إلى مثل هذا وهو الذي كان مقربًا إلى القصر؟! والحقيقة أننا يجب أن نفرق بين مرحلتين من حياة الرافعي: مرحلة أُولى كان الرجل فيها محسوبًا على القصر عندما كان (شاعر الملك) يُدبج القصائد والمدائح في الملك فؤاد، وبين مرحلة أخرى عقب انتزاع اللقب منه والإنعام به على (عبدالله عفيفي) [1] وهو ما حدا به إلى كتابة مقالاته الأولى في مجلة (العصور) ينتقد فيها عفيفي ويصفه بركاكة الأسلوب.

ومن ناحية أخرى فلم يكن سقف الحرية ليسمح للرافعي بانتقاد القصر آنذاك، وفي رسائله إلى (أبورية) تلميح في غير موضع إلى هذا التضييق الذي كان يعانيه كغيره من الأدباء والمفكرين، من ذلك الرسالة المؤرخة في 18 يناير 1920م التي رد فيها على تساؤل (أبورية) واندهاشه من عدم رثاء الرافعي للزعيم (محمد فريد)، يقول الرافعي:" أما ما كنت كتبت لي عنه من رثاء الشهيد العظيم فريد بك؛ فأنت لا تعرف الظروف المحيطة التي جعلتني أرى السلامة في السكوت، وأعلم أنني لو نظمت ذلك الرثاء كما

(1) راجع تفصيل ذلك في (حياة الرافعي)، ص 141.

يجب أن ينظم وفي المعاني التي تليق به لرأيت في الصحف خبر نقلي إلى قنا أو ما دونها، فترك الشر ساكنًا أجمل بي"[1].

إنه يرى السكوت أفضل في هذا الآن، فهو الذي يضيق بالوظيفة وأعبائها يخشى أن يصيبه الجهر بآرائه السياسية بالنقل إلى منطقة نائية كـ (قنا) بصعيد مصر؛ فتذهب بما تبقى من راحته؛ ولأن ترك الشر ساكنًا- كما يرى - أجملُ به[2].

وفي رسالة مهمة أيضا كتبها لـ(أبورية) يقول:" أما الأحوال الحاضرة فلا نتيجة لها إلا وضع لون جديد على الواقع الموجود من الزمن، وكل مشكلة بين الذئب والخروف لا يكون حلها أبدًا إلا من لحم الخروف ما لم يرسل الله راعيًا أو يحدث حادثة تشغل الذئب بنفسه"[3]

(1) نفس المرجع، ص 65، يفسر ذلك ما رواه سيد علي صاحب صحيفة (النظام) أن سعد زغلول كان في أحيان كثيرة يطلب منع نشر بعض المواد في الصحف حتى إنه "قد طلب من عبدالرحمن فهمي أن يلفت نظر صاحب جريدة (مصر) أن يكف نشر مقالات لمجد الدين ناصف تتناول تاريخ محمد فريد ورحلاته وآراءه في بعض المسائل الحاضرة" [الصحافة الأدبية بمصر في النصف الأول من القرن العشرين.. السياسة الأسبوعية نموذجًا ص 54 لرضا محمد فوزي نجم، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى 1431 هـ = 2010م].

(2) راجع مقالنا "صفحات مجهولة من حياة الرافعي"، مجلة الوعي الإسلامي - الكويت، عدد ذي الحجة 1436 هـ = أكتوبر 2015م.

(3) رسالة بتاريخ 6 مارس 1928، راجع: رسائل الرافعي، ص 141.

وهكذا يعمد الرافعي إلى التعبير بالرمز عن آرائه السياسية في الوقت الذي تشتد فيه الأزمة ويتم التضييق على الصحف والكُتَّاب، غير أننا لا نعدم أن نقرأ له مقالات شديدة اللهجة مثل التي كتبها في نقد الجامعة المصرية، ووزارة الزراعة، والمجمع اللغوي؛ بل وفي نقد بعض المحسوبين على حزب الوفد الذي كثيرًا ما كان يسيطر على أزِمَّة الأمور في مصر لوقت طويل، فالعقاد الوفدي البارز لعدة سنوات - قبل أن ينقلب على الحزب - لم يسلم من لسان الرافعي حتى في وجود سعد زغلول، وكذلك عفيفي شاعر الملك الذي نالته سفافيد الرافعي قبل أن يشاركه فيها العقاد.

مصادر الرافعي التراثية

لم يتقيد الرافعي بالحدث التاريخي كما يفعل المؤرخ الجادِّ الذي يتحرَّى في نقل الحادثة برواتها وأسانيدها، ويُعملُ فيها الجرح والتعديل؛ وليس هذا بدوره الحقيقي، وإنما أعطى لنفسه الحق في التصرف مستندًا إلى موقفه دون افتئات على حق أحد أو غمطه كما فعل جورجي زيدان في رواياته التاريخية.

والمطَّلع على أدبيات الرافعي يجد له تأثرًا ببعض كتب التراث العربي والتاريخ مثل (كتاب الأغاني) وكتابات الجاحظ، يقول العريان:"من الفائدة أن أشير إلى اثنين من أدباء العربية كان يقرأ لهما الرافعي أكثر ما

يقرأ إلى آخر أيامه هما الجاحظ وصاحب الأغاني، وكان يعجب بأدبهما، ويعجب لإحاطتهما عجبًا لا ينقضي وإعجابًا لا ينتهي، وكان لابد له حين يهم بالكتابة وبعد أن يجمع عناصر موضوعه في فكره أو في مذكرته أن يفتح جزءًا من الأغاني، أو كتابًا من كتب الجاحظ يقرأ فيه شيئًا مما يتفق"[1]

وكان حفيًّا بكتاب (كليلة ودمنة) لابن المقفع، وكثيرًا ما كان يتحدث عن نسخته الخاصة من (كليلة ودمنة) وكيف يجد فيها كل ما يريده من أمثلة تتطابق مع الواقع المتجدد يومًا بعد يوم، يقول في مقال (فلما أدركه الغرق):" عندي نسخة من كتاب (كليلة ودمنة) ليس مثلها عند أحد، ما شئتُ من مَثل إلا وجدته فيها، وقد رجعت إليها اليوم (13 مايو سنةَ 1926) فأصبت فيها هذه الحكاية"[2]

وحسب رأي العريان فلم يستطع كاتب من كتاب العربية أن يحاكيه منذ كان ابن المقفع إلا الرافعي، ولعل أول هذه المحاكاة كانت في مقالة من مقالاته في طه حسين، ونشر على منوالها ثمانية فصول في كتاب (المعركة تحت راية القرآن)، ثم إنه توقف عن ذلك لسنوات حتى جاء العام 1933، فنشر في (البلاغ) مقالًا تحت عنوان (الثور والجزار والسكين) [3] ثم نشر

(1) حياة الرافعي، ص 63

(2) تحت راية القرآن، ص 134.

(3) نفسه، ص 139.

في (الرسالة) مقال (كفر الذبابة) الذي لمز فيه مصطفى كمال أتاتورك الذي قام بانقلاب عسكري أطاح بالخلافة الإسلامية في تركيا ليحل مكانها الحكم الكمالي العلماني.

كيف كان يكتب قصصه التاريخية؟!

يجيب تلميذه محمد سعيد العريان عن هذا السؤال المهم، حيث يروي أنه كان من عادة الرافعي أن يتناول كتابًا من كتب التراجم الكثيرة بين يديه فيقرأ منها ما يتفق، حتى يعثر على عَلَم من أعلام التاريخ؛ فيدرُس تاريخه، وبيئته، وخِلَّانه، ومجالِسَه، ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذي أعدَّه من قبل، فمساحة الإبداع أوسع بكثير من النطاق التاريخي الضيق نسبيًّا، وهو ما يؤكده العريان بقوله: "وإنه ليُلهَم أحيانًا ويُوفق في ذلك توفيقًا عجيبًا، حتى تأتي القصة وكأنها بنت التاريخ، وما للتاريخ فيها إلا نادرة يرويها في سطور، أو إلا أسماء الرجال"[1] وهو ما يعني التصرُّف الواضح للرافعي في الحدث التاريخي، وهو تصرف كبير؛ إذ يستحدث شخصيات وأحداثًا مساعدة، وغير ذلك مما يلزم الحبكة الدرامية مع عدم غياب الفكرة التي يسعى إلى إبرازها.

(1) حياة الرافعي، ص 254.

ورغم أنه أعطى نفسه حرية تقديم التاريخ على الوجه الذي يراه؛ فقد كان يشير في بعض الأحيان إلى مصادره التاريخية، ففي قصة (اليمامتان) التي تصدَّرت كتابه (وحي القلم) الذي عُرف به، ذكر الرافعي أن مصدره في القصة هو الواقدي صاحب المغازي والسير، ثم أكمل قصته بعد توقف الواقدي عند حد معين، وروايته لها باقتضاب.

لقد كان الرافعي كما قال تلميذه ورفيقه لسنوات محمد سعيد العريان:" يعيش حياته في كل عصر من عصور التاريخ، فيُحسن إحساسه، ويتكلَّم بلسان أهله، حتى لا يشك كثيرٌ ممن يقرأ قصة من قصص الرافعي أنها صحيحة من الألف إلى الياء"[1]، ولعل ذلك ما جعل قصصه تحظى بشعبية كبيرة بين قرائه؛ إذْ يعجبهم فيها خلطُهُ العجيب بين التاريخ والواقع الذي نعيشه، وخلق شخصياتٍ وأحداثٍ تُضفي عليها المتعة والإثارة.

وفي قصة "سمو الحب" نجد الرافعي يشير إلى نقل قصته عن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وهي قصة سلامة مع عبدالرحمن بن أبي عمار المعروف بـ (القسِّ)، وهي القصة التي ذكرها الأصفهاني تحت عنوان: "ذكر سلامة القس وخبرها"[2].

(1) نفس الموضع، ص 254.
(2) الأغاني (8/ 348).

وقد روى العريان الذي كان مصاحبًا للرافعي وقت كتابة هذه القصة أن الرافعي عندما وقع على هذه القصة استطار بها فرحًا كأنما وقع على كنز ثمين حتى إنه قال ما نصُّهُ:" لقد وقعتُ على نادرة مدهشة من التاريخ تتحدث عن فلسفة المهر حديثًا لا أعرف أبلغ منه في موضوعه"[1]

و(سلَّامة) بطلة القصة هي جارية عُرفت بجمال صوتها، افتتن بها كثير من رموز عصرها، وعنها وعن أختها (ريا) يقول الشاعر ابن قيس الرقيات:

لقد فتنتْ ريا وسَلَّامَةُ القِسَّا ... فلم تتركا للقسِّ عقلًا ولا نَفْسَا

فتاتان أمَّا منهما فشبيهة الهلال ... وأُخـرَى منهما تُشبهُ الشَّمْسا

وفيها يقول أيضًا:

أختانِ إحداهما كالشمسِ طالعةً ... في يوم دجن وأخرى تُشبهُ القَمَرَا

وقد روي أبو الفرج أيضًا أن عبدالرحمن أَو القس قال فيها:

أَهَابَك أن أقــولَ بذلتُ نفسي ... ولـو أني أُطـيـعُ القلبَ قالا

حياءً منكِ حتَّى سُلَّ جِسْمِي ... وشَــقَّ عَـلَّي كتمانِي وطَـالا

(1) حياة الرافعي، ص 255.

ولأن الشيء بالشيء يُذكر؛ فالرواية التي وردت في كتاب الأغاني منسوبة إلى عطاء بن أبي رباح (27 - 115 هـ) بشأن صاحب المقولة الشهيرة شعرًا:

فقلتُ: معاذ الله أن يُذْهِبَ التُّقى تـلاصـقُ أكـبـادٍ بهـنَّ جِـرَاحُ

هذا البيت بالحادثة المصاحبة له وردت روايات أخرى تنسبها إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعي (150 - 204 هـ)؛ ففي (حلية الأولياء):" حَدَّثَنا الحسن بن سعيد بن جعفر حَدَّثَنا أبو زرارة الحراني قال: سمعت الربيع بن سليمان يقول: كنت عند الشافعي إذ جاءه رجل برقعة فقرأها ووقع فيها، ومضى الرجل فتبعته إلى باب المسجد فقلت: والله لا تفوتني فتيا الشافعي؛ فأخذت الرقعة من يده فوجدت فيها:

سل العالم المكي هل من تزاورٍ وضَمَّـــةِ مُشْتَـاقِ الفؤادِ جُنَـــاحُ؟

فإذا قد وقَّع الشافعي:

فقلتُ: معاذ الله أن يُذْهِبَ التُّقى تـلاصـقُ أكـبـادٍ بهـنَّ جِـرَاحُ

قال الربيع: فأنكرت على الشافعي أن يُفتي لحدث بمثل هذا؛ فقلت: يا أبا عَبْد الله تُفتي بمثل هذا شابًّا؟! فقال لي: يا أبا محمد، هذا رجل هاشمي

قد عرَّس في هذا الشهر يعني شهر رمضان، وهو حدث السن؛ فسأل: هل عليه جناح أن يُقبِّل أو يضم من غير وطءٍ؛ فأفتيته بهذه الفتيا؛ قال الربيع: فتبعتُ الشاب؛ فسألته عن حاله فذكر لي أنه مثل ما قال الشافعي؛ فما رأيت فراسة أحسن منها"[1]

ونُسب البيت إلى عطاء بن أبي رباح، وهو الأرجح؛ لغلَبَةِ اسم (المفتي المكي) أو (العالم المكي)، فقد نقل ابن خلكان ما نصه:" قال قتادة: أعلم الناس بالمناسك عطاء. وقال إبراهيم بن عمر بن كيسان: أذكرهم في زمان بني أمية يأمرون في الحج صائحًا يصيح: لا يُفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح، وإياه عنى الشاعر بقوله:

سل العالم المكي هل من تزاور ... وضَمَّةِ مُشْتَاقِ الفؤادِ جُنَاحُ؟!

فقلتُ: معاذ الله أن يُذْهِبَ التُّقى ... تلاصقُ أكبادٍ بهنَّ جِرَاحُ

فلما بلغه البيتان قال: والله ما قلت شيئًا من هذا"[2]

(1) راجع: حلية الأولياء لأبي نُعيم (9/ 150)، وقد ذُكر هذا الخبر في مناقب الشافعي للبيهقي (2/ 94) وفي معجم الأدباء لياقوت الحموي (6/ 2406).

(2) وفيات الأعيان (3/ 261)، وهي منسوبة إلى عطاء بن أبي رباح في (السلوك في طبقات العلماء والملوك) لابن يعقوب الجندي (1/ 106).

وسواء أكان هناك ترجيح من الرافعي لرواية عطاء بن أبي رباح؛ أم أنه لم يقع على الرواية الأخرى التي ترجح الشافعي، فقد أحسن توظيف القصة في إبراز قيمة التعفف والترفع عن الدنايا، وتعظيم التقوى والخوف من الله تعالى ومراقبته، وهذا من التوظيف الإيجابي للتاريخ في معالجة قضايا المجتمع وتربيته.

وفي القصص التاريخية "قصة زواج وفلسفة المهر"، و"ذيل القصة وفلسفة المال"، و"زوجة إمام"، و"زوجة إمام بقية الخير"، و"رؤيا في السماء" و"قبح جميل" يتناول الرافعي الزواج وفلسفته، وأهم الأسس التي تقوم عليها الأسرة السعيدة، ففي "قصة زواج وفلسفة المهر" وذيلها معايير اختيار ولي الأمر زوجًا لابنته، وكيف ضحَّى سعيد بن المسيب بنسب الخليفة عبدالملك بن مروان، وفضَّل عليه تلميذه عبدالله بن أبي وداعة الذي كان رقيق الحال والحسب والنسب.

وفي "قبح جميل" معايير الزوج في اختيار من يقترن بها، وكيف أن الدين والخلق مقدَّمان على الجمال وغيره من الأمور الظاهرية، كما تحدَّث عن (الأُبُوَّةِ) و(البُنُوَّةِ) في "رؤيا في السماء".

على أن ما يلفت النظر في نهاية "ذيل القصة وفلسفة المال" هو استخدام الرافعي الاستعارة التمثيلية التي تجسد أمر العروس وتقربه

بمثال الحمامة التي لاذت بحمى الشيخ مضطربة، أو هو بتعبير آخر "معادل موضوعي" لجأ فيه إلى قصة داخل القصة ليجسد هذه الفكرة أو الحالة ماديًّا؛ حيث البعد عن الحدث التاريخي بمشهد خيالي رائق، يقول على لسان الراوي:" وضج الناس لحمامة صغيرة قد جنحت من الهواء؛ فوقعت في حجر الشيخ لائذة به من مخافة، وجعلت تدف بجناحيها وتضطرب من الفزع، ومر الصقر على أثرها وقد أهوى لها، غير أنه تمطر ومرق في الهواء إذ رأى الناس. وتناولها الإمام في يده وهي في رجفتها من زلزلة الهواء، وكانت كالعروس مسرولة قد غابت ساقاها في الريش، وعلى جسمها من الألوان نمنمة وتحبير، ولها روح العروس الشابة يُهدونها إلى من تكره، ويزفونها على قاتلها الذي يسمى زوجها. وأدناها الشيخ من قلبه، ومسح عليها بيده، ونظر في الهواء نظرة، وهو يقول: نجوتِ نجوتِ يا مسكينة!" [1]

ثمة أمر آخر يسترعي الانتباه وهو تنبُّه الرافعي لعنصر مهم من عناصر القصة وهو (التشويق) كما في قصة "قبح جميل"، وقد تجلَّى ذلك في حديث مسلم بن عمران إلى أحمد بن أيمن كاتب أحمد بن طولون، حيث

(1) وحي القلم، ص 121.

أدار كاتبنا الحوار بطريقة مشوقة، جعلت القارئ يعيش مع المستمع حالة من الترقب ظهرت في النص على النحو الآتي:

1 - يقول مصورًا لهفة الجلساء:" فقطع عليه ابن أيمن، وقال: قد علمنا خبرها من منظر هذين الغلامين، وإنما نريد من خير تلك الدميمة التي تعشقتَها.

قال: مهلًا فستنتهي القصة إليها.."

2 - ويواصل تصوير هذا الاهتمام:" فصاح ابن أيمن، وقد كادت روحه تخرج: فذهبتَ، فزوجك بالجميلة الرائعة أم هذين؛ فما خبر تلك الدميمة؟.."

3 - كذلك قوله:" وصاح ابن أيمن وقد أكله الغيظ: لقد أطلت علينا، فستحكي لنا قصتك إلى الصباح، قد علمناها ويلك، فما خبر الدميمة الشوهاء؟!

قال مسلم: لم تكن الدميمة الشوهاء إلا العروس!!"[1]

وعلى هذا النحو أجاد الرافعي في توظيف التاريخ مستخدمًا عناصر الإبهار والتشويق التي أضفت على النص جمالًا أخَّاذًا يأخذ بالعقول والألباب، فلو اكتفى بالسرد على النحو الذي تستخدمه كتب التأريخ

(1) نفسه، من ص 138 - 146.

obeikandl.com

لفقدت القصة طلاوتها، ولجعلتها مجرد أحداث قد يُعرف آخرها من مطالعة أولها دون الانتظار حتى النهاية.

التنوع الزمني والجغرافي

تنوعت قصص الرافعي أو مقالاته القصصية التاريخية تنوعًا زمنيًّا وجغرافيًّا، بحيث لم يقصرها على فترة تاريخية بعينها، أو على بلدٍ بعينه؛ إنما طوف التاريخ هنا وهناك، وفي الأرض شرقًا وغربًا. فمن هذه القصص ما وقعت أحداثها في الخلافة الراشدة كما سبق أن بيَّنَّا في (اليمامتان)، ومنها ما هو في العصر الأموي مثل: (سمو الحب)، و(قصة زواج وفلسفة المهر)، و(ذيل القصة وفلسفة المال)، و(بنته الصغيرة 1 – 2). ومنها ما كان في عصر الدولة العباسية مثل: (زوجة إمام)، و(زوجة إمام بقية الخير)، و(قبح جميل)، و(الانتحار 1 – 6)، وهكذا.

أما جغرافيًّا فمن هذه الأحداث ما وقع في المدينة المنورة كـ(قصة زواج وفلسفة المهر). ومنها ما كان في مكة مثل (سمو الحب). وما كان في مصر مثل (اليمامتان)، و(أمراء للبيع)، و(الأسد). وفي العراق مثل (رؤيا في السماء). والكوفة كـ(زوجة إمام)، و(زوجة إمام بقية الخير)، و(الانتحار 1 – 6). والبصرة كـ(قبح جميل)، و(بنته الصغيرة 1 – 2).

وهناك (السمكة)، و(الزاهدان2) و(إبليس يعلم3)، و(الدنيا والدرهم 4) وقد وقعت أحداثها في (بَلْخ) إحدى ولايات أفغانستان حاليًا، وفي ذلك إشارة إلى وعي الرافعي بالتاريخ، واهتمامه بتفاصيله في عصوره وأوطانه المختلفة.

لقد كان الرافعي مؤمنًا بأن تفسير التاريخ ليس حكرًا على أحد؛ شريطة الالتزام بمساره السليم وعدم الافتئات عليه؛ ولذا نجده يُضَمِّنُ أحد كتبه مقالًا للأمير شكيب أرسلان تحت عنوان (التاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم)، يقول فيه:" ولع بعض الأدباء باتهام التاريخ الإسلامي الذي لدينا وسلوكِ طريقة في التعليل لم يسلكها الأولون، ارتيادًا لوجوه جديدة وأسباب للحوادث لم تكن معروفة، بحيث يقال: إنهم كشفوا حقائق تاريخية لم يعرفها غيرهم أو عرفوا أسرارًا أعماها التاريخ الديني أو عمتها السياسة وأهواؤها على الجمهور. ويسمون ذلك تمحيصًا وتحقيقًا، ويظنون أن التمحيص والتحقيق هما مجرد المخالفة والخروج عما عليه الرأي العام. والحقيقة أنه إن كان مقصدهم مجرد المخالفة وتغيير الأسلوب لعدم الصبر على طعام واحد فقد أصابوا الغرض"[1]

(1) تحت راية القرآن، ص 73.

ويرد أرسلان على من يَدَّعون أن التشكيك في الثوابت التاريخية والتلفيق هو منهج غربي قويم أخذت به أوروبا فأفاقت من غفوة بل بُعثت من موات، يقول:" ولكن إن كانوا يزعمون أن هذه التعليلات الغريبة هي الأصل في تلك الوقائع فليسمحوا لنا أن نستعفيهم من التصديق لأننا نعرف التاريخ بالأدلة العقلية والنقلية وملاحظة ما سبق وما لحق واستنباط النتائج من المقدمات، ولا نعرفه تخرصات وافتراضات وأبنية على غير أساس، فإن كان هذا هو التمحيص التاريخي الذي يتوخى بعض العصريين أن يقلد به الإفرنج فلا كان هذا التمحيص الذي هو عبارة عن قلب الحقائق لأجل الإتيان بالبدع، ويجهل علماء الإفرنج عن أن يكون تمحيصهم من هذا النمط، وقد خلط منهم من خلط في معرض التمحيص، ولكن نبه المدققون منهم على أنهم خلطوا"[1]

أثر الرافعي في القصة التاريخية

رغم موقف الرافعي من القصة وكتابتها؛ فإن الدكتور محمد رجب البيومي جعله "رائد القصة الإسلامية بما أبدع من آثار نبَّهت الأذهان"[2]، وقد كان تأثيره في عالم القصة التاريخية واضحًا في أعمال بعض الأدباء الذين خلفوه كتلميذه محمد سعيد العريان

(1) نفسه الموضع.

(2) راجع كتابه: مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن، ص 159.

(1905 – 1964م) الذي تنبه مبكرًا إلى أهمية التاريخ باعتباره مصدرًا من مصادر القصة، يقول:" وفي الأدب القديم نويات كثيرة من مثل هذه النواة لم يتنبَّه لها الذين يدعون إلى العناية بأدب القصة في العربية، ولو قد تنبهوا لها لوجدوا معينًا لا ينضب كان حريًّا بأن يمدهم بالمدد بعد المدد لينشئوا في العربية فنًّا جديدًا من غير أن يقطعوا الصلة بين ماضينا وحاضرنا في التاريخ الأدبي"[1]. ولذا فقد ألَّف العريان في هذا المضمار عدة روايات تاريخية منها: (قطر الندى) 1945، و(على باب زويلة) 1946، و(شجرة الدر) 1947، (بنت قسطنطين) 1948 وفي هذه الكتابات من أنفاس الرافعي؛ بل إن قارئ كتاب (حياة الرافعي) ليشعر أحيانًا عند مطالعته أنه يقرأ قطعة من أدب الرافعي ذاته، وكأنه هو من يكتُب عن نفسه.

ويعتبر علي أحمد باكثير (1910 – 1969م) من الأدباء الذين تأثروا بالرافعي في أعمالهم التاريخية لاسيما رواية (وإسلاماه) التي نشرت في العام 1945م، وتناولت فترة تاريخية من أكثر الفترات حرجًا؛ حيث كان المسلمون يعانون من الهجوم التتري الصليبي، وقد تمكَّنوا من دحر

(1) حياة الرافعي، ص 251 – 252.

العدوانين، وبطل القصة هو القائد المسلم المعروف (سيف الدين قطز)، وقد بلغ تأثُّر باكثير بالرافعي أنه استمد موضوع روايته (سلَّامة القَس) من مقال الرافعي الذي أشرنا إليه.

وممن تأثر بالرافعي أيضًا الكاتب المعروف محمد عبدالحليم عبدالله (1913 – 1970م)، نعم لم يك مكثرًا في الكتابة التاريخية؛ لكن روايته الوحيدة ذات النمط التاريخي (الباحث عن الحقيقة) هي رواية نموذجية تحكي قصة الصحابي الجليل (سلمان الفارسي) رضي الله عنه – وكيف خرج من بلاده (بلاد فارس)؛ ليبحث عن دين يجد فيه نفسه بعدما ضاق بطقوس المجوس وعبادة النار، وتتوالى الأحداث بدءًا بمحاولات والده المستميتة لإبقائه على دين الآباء والأجداد؛ حتى إنه قام بتقييده وسجنه؛ إلا أن ذلك لم يكن ليُثني عزمه أو يلين همته، وتنتهي أحداث الرواية به في بلاد فارس بعد الفتح الإسلامي لها في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والشيخ علي الطنطاوي (1909 – 1999م) أيضًا ممن تأثر بالرافعي بشكل عام، وبالقصة التاريخية بشكل خاص، فقد كتب الشيخ عدة قصص تاريخية أثبت أكثرها في كتاب أصدره سنة 1957م عنونه

بـ (قصص من التاريخ)، حرص فيه على التنوع التاريخي والجغرافي، من هذه القصص التاريخية التي ضمنها كتابه: (النابغة الذبياني)، و(ابن الحب)، و(ثلاثون ألف دينار)، و(على أبواب المدينة)، و(ليلة الوداع)، و(في بيت المقدس)، و(عالم).

وبالإضافة إلى العريان فهناك الدكتور محمد رجب البيومي (1923 – 2011م) الذي أصدر عدة قصص منها: (فاتنة الخورنق)، و(في قصور الأمويين: مشاهد تاريخية)، و(ابن حنبل)، و(من القصص الإسلامي) ويعتبر امتدادًا للمدرسة الرافعية، وحسب رأي الدكتور البيومي" فقد كان لاتجاه الرافعي صدًى بعيدٌ عند أصحاب الفكرة الإسلامية من كبار المبدعين، فأخذوا يتأثرون باتجاهه في اختيار المواقف الهادفة... وأذكر في هذا الصدد الكاتب القصصي علي أحمد باكثير.. ومحمد سعيد العريان، وعبدالحميد جودة السحَّار ومحمد عبدالحليم عبدالله"[1]

وإجمالًا، فقد أحسن الرافعي توظيف الحدث التاريخي واتخذه مرجعية لقصصه التاريخية، وإن لم يرتبط بتفاصيل الحدث الدقيقة أو

(1) راجع: فارس القلم تحت راية القرآن، مرجع سابق ص 158 – 159.

يتقيد به؛ ولكنه أضفى عليه من أسلوبه ما أخرجه من حيز التاريخ إلى حيز الإبداع، غير أنه يُحمد له عدم الافتئات على شخصية بعينها، أو تبديل الحقائق التاريخية، أو إساءة التعامل معها كما الحال عند بعض الكتاب الذين يُغِيرون على التاريخ فيسلبون منه ما يريدون ويتركون ما لا يروق لهم.

obeikandl.com